الشكل والجوهر

كان صديقي غاضبا وهو يردد :

+ روتين .. روتين .. حتى الكنيسة فيها الروتين .. لابد أن أحضر مبكراً كي أستطيع التقدم للتناول ، لابد أن أكون صائماً قبلها بشهر ! ، ولابد أن أكون ملتزماً باصوام الكنيسة .. كلها تنظيمات روتينية ، ما فائدتها ؟ ما دمت مؤمناً محباً مخلصاً للمسيح . لقد تركنا الجوهر واستغرقتنا الطقوس والترتيبات . أن الله ينظر إلى القلوب لا إلى الطقوس .

– هل تسمح لى بسؤال ؟

+ أعلم أنك تريد أن تغيظنى ، ولكن ما سؤالك ؟

– إذا كان الشكل غير مهم – في رأيك – فلمإذا اهتم الرب بكل تفاصيل الطقوس والذبائح كما نرى في سفر اللاويين وسفر العدد ؟

+ كان هذا في العهد القديم ، أما الآن فالمسيح له المجد يدعونا إلى حرية مجد اولاد الله .

– ومإذا عن الصلاة الربانية ؟ لقد طلب التلاميذ من الرب أن يعلمهم كيف يصلون ، وكان يمكنه أن يقول لهم : صلوا بخشوع ، بتسبيح ، بشكر .. ، ولكنه قال لهم صلوا هكذا "أبانا الذي في السموات ... " لقد أعطاهم ألفاظاً محددة للصلاة .

+ ولكن ما علاقة ذاك بهذا الروتين.. أصوام لا تنتهى ، وألحان محفوظة تؤدى دون فهم ..

– أرجو ألا تتجنى وأن تفسح لى صدرك قليلاً .. كان الله عند البشر عبارة عن فكرة مجردة ، قوة خفية ، جبروت لا يدنى منه ، فأحب أن يعرفه الناس لذا تجسد وأخذ شكل تواضعنا كما يقول القديس بولس .. صار جسداً بملامح محددة وترك الناس يرسمون صورته ويعلقونها على صدورهم ، لأن الإنسان روح وجسد وحدة متكاملة ، ولابد لله أن يتعامل مع كل عناصره . وبتجسد الكلمة دخل الرب إلى عالمنا وقدسه ، وتقدسنا نحن فيه، ولم يعد بعد مجرد فكرة هائمة في سراديب العقل .. وها هو كل يوم يقدم لنا جسده ودمه على المذبح لنأكله ونتحد معه ونحيا به ونشبع منه

+ يعنى أنت موافق على الممارسة الروتينية للطقوس والترديد اللاواعى للألحان ؟

– بالقطع لا .. إن الشكل لا يغنى عن الجوهر .. فالتسبيح بالروح والحق يعطى للصلاة فاعلية فوق أرضية تدخلنا في طغمات الملائكة ، ولكن الجوهر أيضا يحتاج إلى شكل ، كما تحتاج الفكرة إلى مثال وكما يلزم للمعنى إطار . ألم تر رب المجد يردد كثيراً : "يشبه ملكوت السموات .. " .. ألم نقرأ في الكتاب المقدس أن الملائكة تظهر للناس في ثياب ناصعة البياض وهى خلائق غير مادية . إن الشكل يعبر عن الجوهر .. وهناك نقطة أخرى .. أن كل جوهر مجرد دون شكل ، تنتفى معه امكانية التفاعل الصميمي .

+ مش فاهم حاجة ؟!

– في الإنسان اجتمعت الطبيعة المادية مع الطبيعة الروحية ، ولابد لكل عمل كي يدخل إلى عمق الإنسان أن يتفاعل مع الطبيعتين : نحن نأكل ونشرب الجسد والدم الإلهيين فنتحد بالله .. نحن نشم البخور فنرفع أفكارنا إلى العرش الألهي (نش ١: ١٢) ، نحن نسمع القراءات والصلوات فتنشغل أذهاننا بوصايا الرب .. نحن نقف ونركع ونسجد ونرفع أيدينا ونقرع صدورنا فتنسحق نفوسنا إتضاعاً وندماً وتوبةً أمام المخلص له المجد .. الخلاصة أن كل عقيدة أو فكرة تحتاج إلى شكل يجسدها ولو بالكلمات ، وكل فكرة أو مبدأ نعتنقه لا معنى له ان لم نترجمه إلى سلوك وحياة ومواقف .

+ يعني المفروض أن التزم بنظام الكنيسة دون فهم ؟

– بتاتاً .. بل إسأل وافهم وناقش ، وتذكر ما قاله الرب أننا بدونه لا نقدر أن نفعل شيئاً . إن خضوعي لأب اعترافي في الإرشاد الروحي ، وجهادي لتنفيذ وصايا الرب في الإطار الذي وضعته الكنيسة ، هو إقرار مني بضعفي وقصوري عن الإنتصار على الخطية العاملة في ، واستدعاء للرب ليعمل في داخلى، هذا هو عمل النعمة الخفي الذي لا يرى ، هذا هو الجزء المخفي من الصليب داخل الأرض ، هذا هو الحَب الذي ينمو والناس نيام ، هذا هو سر المسيح وهذا هو النصيب الذي لا ينزع منا.

+ يعنى أؤمن بدون عقل ؟

– الإيمان يسبق العقل ولكنه لا يلغيه ، نحن نقبل الكتاب المقدس ببساطة الإيمان فنعقله ونفهمه ونستوعبه .

+ إذن اتفقنا ، فأنا أومن بالمسيح وأعى ذلك بعقلي ، وافكر في كلمات الإنجيل وما لا أفهمه أصلى وأقرأ وأسأل واناقش حتى أصل إلى الفهم الأرثوذكسى ، أليست الروح العاقلة هى صورة الله في الإنسان؟

– معك حق ..